رحيل

ربطت الشاعرَ الفرنسي الراحل مؤخَّراً، علاقةٌ مبدئية بالعالَم العربي، استمدّها من إيمانه بعدالة الحركات التحرُّرية. كان يراه دون حجاب استشراقي؛ فهو ينتمي إلى جيل دافع عن استقلال الجزائر وخرج في مظاهرات ضدّ همجية الاستعمار الفرنسي، وقد ظل على مبادئه ولا سيما مع الشعب الفلسطيني وحقّه في المقاومة

وداعاً هنري ديلوي

صديقنا... من الجزائر إلى فلسطين

جلال الحكماوي

20 تموز/ يوليو 2021. صباح مشمس في الرباط. رحل هنري ديلوي. قرأتُ الخبر الغريب والمفاجئ على حساب فيسبوك صديقي الكاتب والناشر لوران كوفيه، كأنّني أحلم. كنتُ أعتقد أنّ الشاعر الشيوعي الأخير لا يموت. تذكّرتُ قامته القصيرة ونظرته الحادّة ووجهه البشوش ومشيته السريعة، رغم العكّاز، في مرسيليا قبل بضع سنوات. حدَّق فيَّ طويلاً قبل أن يبتسم لما سلّمتُ عليه. لم يتغيّر كثيراً رغم مرور السنين. شاعر بنغال من ريح فتح العالم شاسعاً بين دفّتي مجلّته الشعرية الشهيرة «أكسيون بويتيك» (1958 - 2012). تعرّفتُ على المجلّة في تسعينيات القرن الماضي قبل أن أتعرّف على الشاعر في باريس. كنتُ أزوره كلّما ذهبتُ لقضاء الصيف عند صديقي الشاعر عبد الإله الصالحي. وكان يسألني دائماً عن المغرب العربي والعالم العربي، هو الذي جال العالم بالطول والعرض. كان يطلب منّي مُساعدته ديللي ببكو، بعد كلّ زيارة، أن تمنحني كلّ جديد عندهم من المجلّة إلى منشورات «بيبيناّل فال دو مارن»، مهرجان الشعر العالمي الذي أطلقه في التسعينيات. ظلّت المجلّة تصلني في المغرب إلى أن توقّفت نهائياً وهي في قمّة مجدها.

مختبر شعري مفتوح على العالم

وُلد هنري ديلوي (1931 - 2021) ونشأ في وسط شعبي بمرسيليا. كان أبوه الإسباني الشيوعي يشتغل صبّاغاً، وكانت أمّه الإيطالية حلّاقة. بعد دراسة متقطعة، صار معلّماً ومناضلاً شيوعياً في ريعان الشباب. التحق بمجلة «أكسيون بويتيك» بعد أن أسّسها الشاعران الشيوعيان جان مارليو وجيرالد نوفو سنة 1948. كانت تجمعه بهما الأصول الشعبية والهجرة والانضال الشيوعي. لعبت مرسيليا دوراً أساسياً في إشعاع المجلّة. كانت مدينة كوسموبوليتية تحارب دون هوادة غرور باريس ومركزيتها. لم تكن «أكسيون بويتيك» المجلّة الأدبية الأولى في تاريخ مارسيليا الأدبي، بل كانت قبلها بكثير مجلّة «دفاتر الجنوب» الشهيرة (1925 - 1966) برئاسة الشاعر جان تورتيل الذي نشر القصائد الأولى لهنري ديلوي وأصدقائه. انطلقت المجلّة تحت قيادة ديلوي مثل قطار سريع. كانت مجلّة غربية منفتحة على كل التيارات الشعرية والفنية ومستقلة ماديا وتحريرياً عن الحزب الشيوعي، عكس «الآداب الفرنسية» التي كان يسهر عليها الشاعر لويس أراغون في باريس.

كان الخلاف ظريا بين جماعة باريس وشباب مارسيليا الذين كانوا يرفضون العودة إلى الشكل التقليدي في الشعر كما كان يدافع عنه أراغون. كما امتنعت المجلّة «الشيوعية» الجديدة بالترجمة لتقديم شعريات العالم إلى القارئ المحلّي. وبدأ ديلوي بالشعر الهولندي، إذ تعلّم الهولندية عندما استقرّ في هولندا وهو لم يتجاوز العشرين وتزوّج فيها أنّا ماريا سويسيرغن. ترجم لكبار الشعراء الهولنديّين؛ أمثال لوسيير وبيرت شيربيرت، كما تعرّف على أعضاء «جماعة كوبرا» الشهيرة ورافقهم في مغامرتهم الفنية.

استطاع هنري ديلوي أن يجعل من «أكسيون بويتيك» مختبراً شعرياً مفتوحاً على العالم، لعبت فيه الترجمة وحوار الأشكال الفنية ودينامية الجديد وتشجيع الأجيال الصاعدة دوراً حيوياً في استمرار التجربة وتجاوزها لكلّ الصعوبات الأيديولوجية والنظرية والسياسية، رغم الانتماء الشيوعي لأغلب أعضائها. كما أنّ الصراع في المجلّة بين الجناح النبو-سوريالي والجناح التقليدي لم يصل إلى حدّ القطيعة. ويعود السرّ في ذلك إلى تجديد طاقم المجلّة ومرونة ربّانها، فهناك من تركها لاعتبارات فكرية؛ كشارل دوبرّانسكي، ومن التحق بها ليكتشف ثراء التجربة الشعرية؛ مثل جاك روبو، وفرانك فونداي، وبول لوي روسي. وهكذا استطاعت المجلّة في الستينيات أن تُجدّد نفسها وتمرّ بأقلّ الأضرار الممكنة من عواصف البنيوية (مجلّة «تيل كيل»، العدو الأدبي والنظري، ومجلّة «شانّج» بقيادة جان بيير فاي المنسحب من «تيل كيل» والحليف النظري لـ«أكسيون بويتيك») لتصل إلى التسعينيات بابرز الأصوات الشعرية الفرنسية والعالمية.

عالم عربي بلا حُجب

كانت علاقة هنري ديلوي بالعالم العربي علاقة مبدئية. وياتي هذا الموقف من إيمان الشاعر بعدالة الحركات التحرّرية والشعوب المستعمَرة سابقاً، لما التقيته في باريس في أواخر التسعينيات، كانت رغبته لا تخفت في التعرّف على مستجدّات العالم العربي. عالم يراه الشاعر دون حجاب استشراقي؛ فهو ينتمي إلى جيل دافع عن استقلال الجزائر وخرج في مظاهرات صاخبة في مرسيليا ضد همجية الاستعمار الفرنسي آنذاك، لم يكن قد زار المغرب العربي. فلمّا دعوتُه سنة 2005 إلى «مهرجان الشعر المتوسّطي» في الرباط الذي كنت أديره لفائدة «اتحاد كتّاب المغرب»، كان سعيداً جدّاً. لكن قبل أن يستقلّ الطائرة ويحطّ في المغرب، كان لهنري ديلوي وشعراء مجلّة «أكسيون بويتيك» في سبّينيات القرن الماضي تاريخ نضالي مع الجزائر المستعمَرة؛ حيث أصدروا عدداً خاصّاً عن حرب الجزائر سنة 1960. جاء ديلوي إلى الرباط وشارك في القراءات الشعرية والندوات والورشات بحماس كبير. كان يتعرّف على الشعر العربي من خلال الشعراء المشاركين في المهرجان من تونس والجزائر ومصر ولبنان... وفي سبقه الدائم، كان قد أصدر في سنة 2004 ملفّاً عن الشعر الفلسطيني في العدد 178 من «أكسيون بويتيك» قدّم فيه ستّة شعراء من فلسطين (محمود درويش، وعثمان حسين، ونجوان درويش، ووليد الشيخ، ودنيا الأمل إسماعيل، وسمية السوسي) بعد أن زارها ووقف على بشاعة الاحتلال الإسرائيلي.

كتب ديلوي في مقدّمة الملف الفلسطيني للمجلّة حواره مع الشعراء الشباب الفلسطينيين: «بين المستوطنات الإسرائيلية التي تحتلّ أحسن الأراضي وطوابير المدرّعات، كيف ننتزع فضاء للكتابة؟ كيف سنجد كتابة تهتمّ بنفسها أيضاً؟ دار حوارنا الطويل حول الشعر العالمي نتشارك بعض «الإشكاليات النظرية» (نستعمل المصطلحات نفسها)، وليس فقط سؤال «كيف نكتب بعد أوشفيتز» الذي يصير هنا: «كيف نكتب بعد صبرا وشاتيلا؟». (ص 21، العدد 178، سنة 2004).

كان هنري ديلوي مشرعا دائماً مجلّته للأصوات الجديدة من الصين إلى البرازيل مروراً بفيتنام والولايات المتّحدة الأميركية وتشيكوسلوفاكيا. أذكر أنّني لمّا زرته في باريس سنة 2004، رحّب بي بحرارة وأدخلني إلى مكتبه قائلاً: «أريدك أن تساعدني في ترجمة شاعر فلسطيني من الجيل الجديد». كانت هذه أوّل مرّة أتعرّف فيها على شاعر فلسطيني اسمه نجوان درويش. كانت اللحظة غريبة: أسافر إلى باريس لأكتشف شاعراً من أبناء جلدتي في مجلّة شعرية شهيرة! أكّدت لي لاحقاً مثل هذه المواقف عبقرية الرجل وقدرته على الخروج من دوغمائية السياسي إلى شساعة العالم.

التقى ديلوي في الرباط بالإخوة الشعراء الجزائريّين الذين وجّهوا له دعوة لحضور مهرجان في السنة الموالية في الجزائر. قال لي بابتسامته الوديعة ونحن نتجوّل في أزقّة المدينة القديمة لمّا سألته عن سبب القطيعة الثقافية والفكرية بين المغرب العربي وفرنسا: «يا جلال، الحقيقة أنّنا لم نراجع بعد تاريخ استعمارنا في المغرب العربي ولا سيما الجزائر. والمسألة ستتطلّب وقتاً طويلاً مع الأسف».

(شاعر من المغرب)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

هنري ديلوي

> مناضل ورحّالة
> شعري لم يترك مكانا
> إلّا وحفر فيه
>
> لم تخفت رغبته في
> التعرُّف على مستجدّات
> العالم العربي

أنطولوجيات الراهن

إلى جانب اشرافه على مجلّة «أكسيون بويتيك» (الخلاف، عدد يضم ملفا عن الشعر الفلسطيني، 2005)، اصدر ديلوي عددا كبيرا من الانطولوجيات، منها: «الشعر في فرنسا بين 1983 و1988»، و«أنطولوجيا الراهن»، و«أنطولوجيا 2000»، و«29 شاعرة»، و«أنطولوجيا اعتباطية للشعر الجديد». ومن مجموعاته الشعرية نذكر: «صور» (1948)، و«الألف» (1980)، و«التكرار» (1992)، و«لقبي» (1998)، و«إلى الأجنبية» (2006)، و«الماضي غير المنتظر» (2012).

تصويب

عزيزي هنري

نجوان درويش

عزيزي هنري، يقال إنك الآن في الأمجاد السماوية. لكن بودي أن أخاطبك كمقيم دائم في الأمجاد الأرضية. «أيموتُ الذي كان يحيا كأنّ الحياة أبَدْ؟».

أمس حلمتُ بأنني مع مجموعة قُتلت ولم تفهم معنى أنها قُتلت. جرى حصارُنا وفجأة وجدنا أنفسنا في عالم موازٍ لا يلاحِظُ سُكّانُه وجودَنا. نراهم ونسمعهم ولا يروننا ولا يسمعون أصواتنا. كنّا أرواحاً لا تسلّم بالموت. حين حاولنا استشارة انتباههم لاحظت سيدةٌ منهم أننا لم نسلّم بموتنا بعد. كنّا أرواحاً متشبثة بالأرض، ويبدو أنها لم تكن المرّة الأولى التي تلاحظ تلك السيدة أرواحاً تتشبّث.

استيقظتُ من الحلم لأشتغل أربع ساعات قبل أن أكتب لك هذه الرسالة. هي في الحقيقة رسالة شكر. ربما لم تعرف كم كان لقائي بك فارقاً في حياتي الشخصية والثقافية. فما الإنسان إلا مجموعة لقاءات. جسّدتَ لي الثقافة الفرنسية المتحررة من إرثها الاستعماري، بعفوية وطفولية مُحبّبة. أثر بي كرمُك. كنتَ مِثل جَدٍّ أطلقَ سراح أحفاده، دون أن يتخلّى عن مسابقتهم في المغامرة الشعرية. جَدٌّ هو طفل أيضاً.

أثر بي بلا حد تضامنك مع مقاومتنا. قرأتُ مرةً لك لقاء صحافياً تقول فيه ما معناه إنها شرعية مثلها مثل المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي. هذا أمرٌ ليس بقليل. لم تكن تحتاج شروحاً مطوّلة كالآخرين لتصل إلى الحقيقة العارية.

محبّتي لك كلّها. أتطلع إلى لقائك قريباً.

تلويحة

إنّه مهمٌّ اليوم...

لوران كوفيه

نحن في 1995، وصلتُ مع جوليان بلين إلى «غاليري ماير» أحد الفضاءات النادرة في مرسيليا التي تحتضن الفنون غير المكرّسة والأداء الشعري الحيّ. هنري ديلوي كان هناك. عرّفنا جوليان ببعضنا، وبمرحه وكرمه المعروف، قال: «لديكما الكثير من العمل اليوم».

بعد عشرين عاماً من ذلك، وفي مرسيليا أيضاً، جاء بني هنري إلى «مانيفستو»، وهو مقهى جمعيّاتي وفضاء ثقافي مستقل أطلقتُه قبل قرابة عام، وقد راق لهنري وبات يحبّ التردّد عليه، مُعظم الوقت بصحبة ليليان جيغودون وجان جاك فيتون.

في ذلك الصباح، كان المقهى مغلقاً، ولكن كانت قد وصلتني نسخ من آخر إصدرات منشورات «آل دانتي»: «ما هو أنت»، كتابٌ للشاعر الهولندي هرمان غورتر، بترجمة هنري وبنته ساسكيا. قلّبنا معاً صفحات الكتاب، علّقنا على مقاطعه ونحن نحتسي مشروباتنا، ثم جَمَع النسخ التي سيأخذها في حقيبة شراءات. لا شك أنها ذاتها التي يتسوّق بها.

بابتسامة تساعد في إيصال فكرته، قال لي: إنه مهمٌّ اليوم أن نذكّر أن السياسة يمكنها أن تتصارع هي الأخرى مع الشعر (هرمان غورتر كان ناشطاً ثورياً مقرباً من السبارتاكيين في ألمانيا ومن زعيمتهم روزا لوكسمبرغ). أتذكّر اضطرابي حين رأيته يستعدّ للمغادرة، يرتدي معطفه العازل للماء ليصبح من غير الممكن أن يتعرّف عليه أحد، كما يعرف كيف يفعل ذلك المناضلون في الظل والمقاومون: حقيبته كان يمكن أن تحتوي على الكتب أو الفواكه... أو أي شيء آخر.

كثيراً ما عدتُ إلى صيغة تلك العبارة التي وردت على لسانه: إنّه مهمٌّ اليوم (Il est important aujourd›hui)...

في نهاية 2015، كنّا نعيش على وقع المظاهرات ضد إعلان حالة الطوارئ. فكّرتُ مثل كثيرين، أن هنري كان يردّد طوال حياته: «كم هو مهمٌّ اليوم...»، مثلما في خمسينيات القرن الماضي، حيث أدار مجلة «أكسيون بويتيك»، كما في الستينيات حين أشرف عل تلك السلسلة الرائعة «شعر البلدان الاشتراكية» ضمن «منشورات بيير جان أوسفالد» مانحاً للقراءة نصوص شعراء سلوفاكيين وروس وألمان ومجريين وآخرين، في فرنسا كانت وقتها مرهونة للشوفينيين ومناهضي الشيوعية. وكما في السبعينيات حيث أدار نفس السلسلة مع «دار فرانسوا ماسبيرو» مع جاك روبو ثم إليزابيت رودنسكو. وكما في كل عمل يُصدره عن شاعر من بلد آخر، من قارة أخرى، كان يعرف كيف يجعلنا نلتفي بالآخرين رغم حواجز السياسة، والاقتصاد، واللغة، والجغرفيا...

هنري، لا تزحد مكتبة في العالم لست موجوداً فيها، سواء عبر شِعرك أو ترجماتك أو أنطولوجياتك أو منشوراتك أو من خلال كتب كثيرة لا تحمل توقيعك ولكنها ظهرت للوجود بفضلك، بفضل قنوات الصداقة التي كنت تربطها بين أرجاء العالم.

هذه الروابط التي نسجتَها طوال حياتك تشكّل اليوم كتائب رفاقية تواصل مقاومة سموم عصرنا. معك حق، أكثر من أي وقت مضى؛ إنه مهمٌّ اليوم...

(Laurent Cauwet) **كاتب وناقد وناشط ثقافي فرنسي**،
ترجمة: شوقي بن حسن)

كشّاف أضاء على القرن العشرين الشعري

كان في الجهات الأربع من كوكبنا

كان متحزّباً ومناضلاً سياسياً، نعم، ولكن قبل كل ذلك هو متحزّب ومناضل من أجل الشعر. حين نقرا له نتأكّد من كرمه ومن انفتاحه على العالم

مشهد من مدينة مرسيليا وجزرها (Getty)

جوليان بلين

مرسيليا قاسمنا المشترك،

في الغالب، يبدأ كل شيء هكذا؛
ألفةٌ وتعاونٌ بين شعراء يُطلقون مجلات، ينظّمون مهرجانات، لهم أصدقاء مشتركون، ويُسافرون كي يقولوا هناك ما يحدث هنا. وهنا يُخبرون بما شاهدوا وبمن التقوا هناك.
مع هنري كان الأمر كذلك.

مجلة «أكسيون بويتيك» من 1958 إلى 2012
البينالي الدولي للشعراء في فال دو مارن
من 1991 إلى 1997
جوزيف جولبان غوغليالمي، جان جاك فيتون، وليليان جيغودون، كي لا أذكر إلا الأقدم والأكثر اجتهاداً وحضوراً.
هنري كان في الجهات الأربع من كوكبنا الكروي..

رغم نقاط الالتقاء الكثيرة، نحن الاثنين، كان لقاؤنا في بداياته مُعقّداً. ينبغي أن نستعيد القدرة على التذكّر، أو على تمثّل القوة التي لا تصدّق لليسار وقتها، لا فقط انتخابياً، بل وبالخصوص ثقافياً. وإذا اردنا التخصيص أكثر ففي مجالات الفن والشعر.

في ذلك الزمن، كنّا جميعاً من اليسار
اليسار لم يكن آنذاك مفهوماً مُحايداً، بلا طعم ورائحة، بلا مضمون ولا دلالة.
لم يكن مفهوماً توافقياً، ولا قابلاً للتصريف مع أي كان
كان اليسار وقتها قوة حقيقية. كنتُ مع بعض أصدقائي الفوضويين والليبراتاريين صيغة مستقلّة من اليسار، وكان هنري شيوعياً بالكامل منتمياً لحزب.
خلق هذا الوضع نقاشات رائعة، وبعض المشادات، ولكن في النهاية خلق الكثير من الروابط وصداقة حقيقية.
وإلى ذلك، لدينا مرسيليا كقاسم مشترك، هذه المدينة التي تضم كل الألوان بقُراها المئة والأربعين ناهيك عن شواطئها وجزرها.

أذكر هنري وعشقه للطبخ. يا لها من ذكرى حين أسترجع إحدى قراءاته الشعرية على خشبة «تياتر دي برناردين». كان يطهو اللحم للجمهور. ولا أحد يمكنه أن يعقد بيني وبينه اتفاقاً، كان يرى أن الزيتون الأخضر ينبغي أن يرافق أكلة الكايت caillettes، أما أنا فأقول إنه ينبغي أكلها مع الزيتون الأسود. وفي النهاية، حدث أن تذوّقتها مع الزيتون الأخضر.

(Julien Blaine) شاعر فرنسي. صديق لـ هنري ديلوي، والنص خاص بـ«العربي الجديد»)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أربع صور

كنت اراه متحمّسا لفكرة او مشروع شعري او ملفّ خاص وهو يناقش الشعراء والنقّاد والشباب الحاضرين في فعاليات المهرجان. سمح لنا لقاء الرباط بالتعرّف الى شاعر استثنائي عمل على فتح الحدود بين الجغرافيات الشعرية والدفاع عن الافكار الجديدة و تقديم الاجيال الجديدة.

تابع هنري ديلوي طريف الشعر الملتوي وكان الشعر العربي يظهر دوريا لياخذ مكانه في هذه المجلّة الاسطورية والثورية دون دوغمائية. نشر في العدد 204 سنة 2011 اصواتا من تونس ومصر في خضمّ الثورات العربية، ومن سورية في العدد 205 من السنة نفسها... كانت الاصوات العربية تاخذ بهدوء مكانها في هذه الجغرافية العالمية المتحركة على الدوام.

قال لي بابتسامته الوديعة ونحن نتجوّل في أزقّة المدينة القديمة لمّا سالته عن سبب القطيعة الثقافية والفكرية بين المغرب العربي وفرنسا: «الحقيقة أنّنا لم نراجع بعد تاريخ استعمارنا في المغرب العربي ولا سيما الجزائر. والمسالة ستتطلّب وقتا طويلا مع الاسف».

لن انسى ابدا بريق عينيه وابتسامته الشهيرة وهو يهديني مختارات من شعره بالعربية صدرت في الجزائر كانه يقول للمغرب العربي: «هو الشعر مرّة أخرى يضع اللبنة الاولى لمصالحة فرنسا مع تاريخها الدموي».

جلال...